محاضرات مقياس الفرد والثقافة

مقدمة

أولاً– الأصول الاجتماعية لكلمة الثقافة وجذورها

1- مفهوم الثقافة.

2- محددات الثقافة وخصائصها.

3- نشأة وتطور مفهوم الثقافة.

ثانياً– الاستخدامات العلمية لمفهوم الثقافة لدى بعض المفكرين

1- فرانز بواس والمفهوم الذاتي للثقافة.

2- ادوارد تايلور والمفهوم العالمي للثقافة.

3- إميل دوركايم والمقاربة الواحديّة للوقائع الثقافية.

4- برنسيلو مالينوفسكي والتحليل الوظيفي للثقافة.

5- روث بنيديكت والأنماط الثقافية.

6- رالف لينتون وابراهام كاردينر والشخصية الأساسية.

مقدمة:

تشتمل الثقافة على القيم التي يتمسك بها أعضاء جماعة معينة، والمعايير التي يتبعونها والمنتجات المادية التي يوجدونها، ولا يمكن وجود ثقافة بدون مجتمع، ولا مجتمع بدون ثقافة. فالثقافة تندرج تحت اتجاهين، الأول اتجاه واقعي يرى الثقافة كل ما يتكون من أشكال السلوك المكتسب الخاص بمجتمع أو جماعة معينة من البشر، والثاني اتجاه تجريدي يرى الثقافة مجموعة أفكار يجردها العالم من ملاحظته للواقع المحسوس الذي يشمل على أشكال السلوك المكتسب الخاص بمجتمع أو بجماعة معينة. فالثقافة كمفهوم سوسيولوجي تشمل كل ما في البعد الأدبي والتراثي والمسرحي والفني، الأنثروبولوجي، فالثقافة حاضر ومستقبل من المنظور السوسيولوجي.

أولاً– الأصول الاجتماعية لكلمة الثقافة وجذورها:

لقد أثبت الباحثون في مجال السلوك الإنساني أن الإنسان له خاصية فريدة ومتميزة، ذلك أنه يمتلك ثقافة، وهذه الخاصية تقتصر على الإنسان وحده كونه الحيوان الوحيد الذي يمتلك ثقافة أو سلوكاً ثقافياً. ولكل مجتمع مفاهيم أساسية خاصة به، يسعى لترسيخها وتثبيت جذورها، ويعمل على المحافظة عليها والاهتمام بها وتأصيلها في أبنائه، وهذه المفاهيم هي ما يمكن أن نطلق عليها اسم الثقافة التي تتعدد، وتختلف باختلاف المبادئ والتصورات الفكرية لدى المجتمعات.

1– مفهوم الثقافة Culture:

الثقافة في اللغة: ثقف ثقفًا وثقافة، صار حاذقًا خفيفًا فطنًا، وثقَّفه تثقيفًا سوَّاه، وهي تعني تثقيف الرمح، أي تسويته وتقويمه. ومصطلح الثقافة مصطلح شديد التعقيد، لذا لم يتفق علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا على تعريف واحد له، رغم شيوع استخدامه في كتاباتهم الكثيرة والمتنوعة، ولو سألنا ألف شخص عن معنى الثقافة فالأغلب أننا سوف نحصل منهم على أكثر من ألف تعريف، نظراً إلى اختلاف وتباين خبراتهم الخاصة. ويرى رايموند وليامز williams. R أن الثقافة طريقة معينة في الحياة، سواء عند شعب، أو فترة، أو جماعة.... أي أنها مرتبطة أشد الارتباط بالحضارة.

وبالتالي فالثقافة هي ذلك الكل المركب المعقد الذي يشمل المعرفة والمعتقدات والأخلاق والقانون والتقاليد وكل العادات والقدرات التي يكتسبها الإنسان من حيث هو عضو في مجتمع. والثقافة تتألف من أنماط، مستترة أو ظاهرة للسلوك المكتسب والمنقول، عن طريق الرموز، أو الأشياء المصنوعة.

2- محددات الثقافة وخصائصها: يتميز الإنسان بقدرته على إنتاج الثقافة، وهذه أهم خاصية تميزه عن بقية المخلوقات، ولكل مجتمع ثقافته الخاصة التي يتسم بها ويعيش فيها، ولكل ثقافة مميزاتها وخصائصها ومنها أنها:

أ- مكتسبة: الثقافة لا يرثها الإنسان كما يرث لون عينيه أو بشرته، بل يكتسبها بطرق مقصودة كالتعلم والتنشئة الاجتماعية، أو عرضية من الأفراد الذين تفاعل معهم ويعيشون حوله، منذ ولادته كأسرته وأقرانه وغيرهم من الذين يخالطهم، فالثقافة نتاج اجتماعي وإنساني، ولا وجود للثقافة من دون إنسان، والمجتمعات دائمة التغير، فالتغير قانون تخضع له جميع الظواهر، فقد تموت الثقافة إذا تفكك المجتمع الذي أنتجها.

ب- انتقالية: الثقافة تراث اجتماعي يتعلمها ويتمثلها الفرد بصفته عضواً في المجتمع، فهي تنتقل من جيل إلى جيل بواسطة عملية التنشئة الاجتماعية، ومن جماعة لأخرى، أو من مجتمع لآخر بواسطة عملية التثاقف Acculturation، وعليه فالثقافة تتحرك وتتطور، ذلك أن كل جيل يقوم بالإضافة إلى (الموروث الثقافي) من خلال التعليم والتجربة، وتسمى هذه العملية (التراكم الثقافي)، والعناصر الثقافية المتراكمة تعمل وتستمر في عدة صور.

ت- تراكمية: وهذا يعني أن الثقافة ذات طابع تاريخي تراكمي عبر الزمن، فهي تنتقل من الجيل إلى الجيل الذي يليه، بحيث يبدأ الجيل التالي من حيث انتهى الجيل الذي قبله، وهذا يساعد على ظهور انساق وأنماط ثقافية جديدة.

ث- الثقافة أداة لتكيف الفرد بالمجتمع: تعتبر الثقافة الأداة التي يستطيع الإنسان من خلالها أن يتكيف بسرعة مع التغيرات التي تطرأ على بيئته الاجتماعية، وتزيد أيضاً من قدرته على استخدام ماهو موجود في بيئته الاجتماعية.

ج- تكاملية: الثقافة ذات طابع تكاملي، وهي مركبة حيث تتكون من عناصر وسمات مادية وفكرية تتجمع مع بعضها في نمط وأنماط ثقافية تترابط وتتكامل مع بعضها بفضل بعض العناصر التجريدية التي يطلق عليها اسم موضوعات أساسية أو تشكيلات configurations، ويقول كلاكهون أن الثقافة عبارة عن بناء وليس مجرد مجموعة عشوائية من أنماط الاعتقاد، فالثقافة نسق تقوم أجزاؤه على الاعتماد المتبادل فيما بينها.

ح- واقعية: الظاهرة الثقافية كالظواهر الاجتماعية، ينبغي النظر إليها كالأشياء واقعية مستقلة لا تتعلق بوجود أفراد معينين، وعليه يمكن دراستها كأشياء مدركة موضوعياً، وتؤثر الظواهر الثقافية بعضها ببعض، كما تؤثر في السلوك الاجتماعي للأفراد في المجتمع وهي تخضع للقواعد الاجتماعية.

خ- استمرارية: الثقافة ظاهرة تتبع من وجود الجماعة الذين ينقلونها إلى الأجيال اللاحقة، فهي ليست ملكاً لفرد معين، ولا تموت بموت الفرد، لأنها ملك جماعي وتراث يرثه جميع أفراد المجتمع، كما أنه لا يمكن القضاء على ثقافة ما إلا بالقضاء على جميع أفراد المجتمع الذي يتبعها، أو تذويب تلك الجماعة التي تمارس تلك الثقافة بجماعة أكبر أو أقوى، ولا تفنى الثقافة إلا إذا انقرض المجتمع الذي يمارسها سواء بالقوة أو الحرب...

د- إنسانية: الثقافة ظاهرة تخص الإنسان فقط لأنها نتاج عقلي، والإنسان يمتاز عن باقي المخلوقات بقدرته العقلية وإمكاناته الإبداعية، ولا يشارك الإنسان في هذه الظاهرة – الثقافة- أي من المخلوقات الحية، فتطور الإنسان من المرحلة الرعوية إلى

المرحلة الزراعية فالمرحلة الصناعية، وتعلم من الذين سبقوه وهو بدوره سينقلها إلى الأجيال القادمة لأن الثقافة التي هي من صنع الإنسان لا تنتقل إلا من خلال الإنسان نفسه.

3- نشأة وتطور مفهوم الثقافة:

كلمة ثقافة كلمة لها تاريخ عريق برز في اللغة الفرنسية منذ عصر الأنوار قبل انتشارها عن طريق الاقتراض اللغوي في اللغات الأخرى المجاورة (كالإنجليزية والألمانية). وهي كلمة تعود في أصلها إلى اللغة اللاتينية cultura التي تعني رعاية الحقول أو قطعان الماشية. ثم ظهرت في القرن الثامن عشر لتدل على جزء من الأرض المزروعة. وفي بداية القرن السادس عشر لم تعد هذه الكلمة تدل على حالة (الشيء المزروع) بل على فعل، أي فعل زراعة الأرض: ولم يتكون معناها المجازي إلا في منتصف القرن السادس عشر، حيث أصبح يدل على تثقيف المَلَكة culture d'une faculté أي العمل على تطوير تلك المَلَكة. لكن هذا المعنى المجازي بقي قليل الشيوع حتى نهاية القرن السابع عشر، ولم يتم الاعتراف به أكاديمياً على الإطلاق، ولم يظهر في غالبية معاجم تلك الفترة.

ولم تبدأ كلمة ثقافة بفرض نفسها مجازياً إلا في القرن الثامن عشر، ودخلت بمعناها هذا معجم الأكاديمية الفرنسية (طبعة عام 1718). ومذّاك أُلحق بها المضاف وصار يُقال: ثقافة الفنون، وثقافة الأدب، وثقافة العلوم، ودخلت الكلمة في مفردات لغة عصر الأنوار دون أن يستخدمها الفلاسفة.

وفي القرن الثامن عشر لم تستخدم كلمة ثقافة إلا بالمفرد، وهو ما يعكس عالمية النزعة الإنسانية للفلاسفة من حيث أن الثقافة أمر خاص بالإنسان دون أن يعني هذا أي تمييز بين الشعوب أو الطبقات. وبالتالي فقد ترسّخت كلمة ثقافة في إيديولوجية عصر الأنوار واقترنت بأفكار التقدم والتطور والتربية والعقل التي كانت تحتل مكان الصدارة في تلك الفترة. كما نلاحظ أنه في هذه الفترة اقتربت كلمة ثقافة كثيراً من كلمة حضارة تلك الكلمة التي ستشهد نجاحاً كبيراً أكثر من النجاح الذي حققته كلمة ثقافة في مفردات اللغة الفرنسية إبان القرن الثامن عشر. والكلمتان تنتميان إلى الحقل الدلالي نفسه وتعكسان المفاهيم الأساسية نفسها. وإن ارتبطت هاتان الكلمتان ببعضهما أحياناً، إلا أنهما غير متكافئتين. فكلمة ثقافة تدل على التطورات الفردية أما كلمة حضارة فتدل على التطورات الجماعية.

ونالت كلمة ثقافة في الفكر الألماني رواجاً كبيراً أكثر مما لقته في فرنسا، وتحولت كلمة ثقافة من كونها علامة مميزة للبورجوازية الألمانية المثقفة في القرن الثامن عشر إلى علامة مميزة للأمة الألمانية كلها في القرن التاسع عشر، وأصبحت السمات المميزة للطبقة المثقفة التي كانت تستعرض ثقافتها كالصدق والعمق والروحانية، سمات نوعية ألمانية. وفي مقابل الدول الأخرى المجاورة مثل فرنسا وإنجلترا على وجه الخصوص، سعت الأمة الألمانية، التي أضعفتها الانقسامات السياسية وفجرتها إلى عدة إمارات، لتأكيد وجودها عبر الرفع من شأن ثقافتها.

لذا فإن المفهوم الألماني للثقافة kultur سعى منذ القرن التاسع عشر إلى تحديد الاختلافات القومية وتعزيزها، وبالتالي فإن هذا المفهوم يعتبر مفهوماً ذاتياً particulariste يتعارض مع المفهوم الفرنسي العالمي للحضارة؛ وهو فهم يعبر عن أمة حققت وحدتها القومية منذ زمن بعيد.

وتطورت الفكرة الألمانية حول الثقافة قليلاً في القرن التاسع عشر تحت وطأة النزعة القومية، وازداد ارتباطها بمفهوم الأمة. وصار ظاهراً للعيان خلال القرن التاسع عشر أن الكتّاب الرومانسيين الألمان أخذوا يقابلون الثقافة بالحضارة.

إن الجدل الفرنسي– الألماني الذي امتد من القرن الثامن عشر حتى القرن العشرين هو نقاش نمطي (أولي) archétypique للصراع بين مفهومين للثقافة وهما في العمق شكلان لتحديد مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية المعاصرة. وعندما ظهر هذا المفهوم لأول مرة في أوروبا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، كان يشير فيما يشير إليه إلى عملية الاستصلاح أو تحسين المستوى، كما هو الحال في عملية الزراعة أو البستنة. أما في القرن التاسع عشر، أصبح يشير بصورة واضحة إلى تحسين أو تعديل المهارات الفردية للإنسان، لاسيما من خلال التعليم والتربية، ومن ثم إلى تحقيق قدر من التنمية العقلية والروحية للإنسان والتوصل إلى رخاء قومي وقيم عليا إلى أن جاء منتصف القرن التاسع عشر، وقام بعض العلماء باستخدام مصطلح الثقافة للإشارة إلى قدرة الإنسان البشرية على مستوى العالم. وبحلول القرن العشرين، برز مصطلح الثقافة للعيان ليصبح مفهوماً أساسياً في علم الانثروبولوجيا، ليشمل بذلك كل الظواهر البشرية التي لا تعد كنتائج لعلم الوراثة البشرية بصفة أساسية. ومنذ عام 1935 تقريباً أخذ علماء الأنثربولوجيا الاجتماعية البريطانية يتجهون نحو استخدام مصطلح البناء الاجتماعي، أكثر من استخدامهم لمصطلح الثقافة.

ثانياً– الاستخدامات العلمية لمفهوم الثقافة لدى بعض المفكرين:

لقد حاول الكثير من العلماء استخدام مفهوم الثقافة في مجالات عديدة، من بينها مجال العلوم الاجتماعية، ومن هنا كان لابد من معرفة هذه الاستخدامات العلمية لهذا المفهوم حتى نستفيد منه، ويمكننا أن نشير إلى ذلك على النحو التالي:

1– فرانز بواس والمفهوم الذاتي للثقافة:

فرانز بواس Franz Boas (1858– 1942) عالم انثروبولوجي ألماني ليبرالي، ينحدر من أسرة يهودية تأثر بالمفهوم الذاتي الألماني للثقافة، وخلال عامي 1883– 1884 شارك في بعثة إلى أرض بافن في بلاد الإسكيمو لدراسة أثر الوسط المادي على مجتمع الإسكيمو، فلاحظ أن التنظيم الاجتماعي كان محكوماً بالثقافة أكثر منه بالبيئة المادية، وبالتالي عاد إلى ألمانيا عازماً على تكريس بحوثه للأنثروبولوجيا بشكل أساسي.

وإذا كان تايلور مخترع المفهوم العلمي للثقافة، فإن بواس هو أول أنثروبولوجي يقوم باستطلاعات ميدانية عبر الملاحظة المباشرة والطويلة للثقافات البدائية، وبهذا المعنى يكون مخترع علم وصف الأجناس البشرية، أو ما يسمى بـ: Ethnographie. ولقد كانت أغلب أعماله تشكل محاولة للتفكير في قضية الاختلاف، فهو يعتبر أن الاختلاف الأساسي القائم بين الجماعات البشرية هو اختلاف ثقافي وليس اختلافاً عرقيّاً. وبما أنه درس الأنثروبولوجيا الفيزيائية فقد أولى هذا الفرع اهتماماً كبيراً، لكن اهتمامه انصب على تفكيك ما كان يشكل في تلك الفترة مفهوماً رئيسياً وهو مفهوم "العرق" البشري المزعوم علمياً، والذي اعتبره مجموعة ثابتة أو دائمة من السمات الفيزيائية الخاصة بجماعة بشرية معينة، وهذا المفهوم ضعيف لا يصمد أمام الواقع. فالأعراق المزعومة ليست ثابتة، وليس هناك صفات عرقية ثابتة. وبالتالي يستحيل تعريف "عرق" ما بدقة حتى لو لجأنا إلى ما يسمى بمنهج المعدلات الوسطية moyennes.

وخلافاً لتايلور الذي أخذ عنه تعريفه للثقافة، وضع بواس نصب عينيه هدف دراسة الثقافات وليس الثقافة. ولأنه كان متحفظاً إزاء التركيبات syntheses النظرية، لاسيما النظرية التطورية ذات الاتجاه الواحد التي كانت سائدة في الوسط الفكري، فقد عرض في عام 1896 في مداخلة له، ما كان يعتبره حدود المنهج المقارن في دراسة الأعراق، وهاجم الاتجاه التطوّري غير المتحفظ المعتمد من أغلب الكتاب التطوريين. ووجه نقداً جذرياً للمنهج المسمى بالتحقيب Périodisation (يعني التقسيم إلى حقبات زمنية) التي تنطوي على إعادة بناء مختلف أحقاب تطور الثقافة انطلاقاً من أصولها المزعومة. ويعتبر

بواس النسبية الثقافية مبدأ منهجياً، فهي تتضمن أيضاً مفهوماً نسبياً للثقافة. ونظراً لأصله الألماني ودراسته في الجامعات الألمانية فقد كان متأثراً بالمفهوم الذاتي particulariste الألماني للثقافة، فهو يرى أن كل ثقافة هي ثقافة وحيدة ونوعية، وكان اهتمامه مشدوداً بشكل عفوي إلى ما يكون أصالة ثقافة معينة. ولذا نجد أن بواس لم يسبقه أي باحث أبداً في موضوع دراسة الثقافات الخاصة بشكل مستقل. لأنه يعتبر أنّ كل ثقافة تمثّل كلاً فريداً، وانصب جهده على البحث عن أسباب هذه الوحدة. ومن هنا اهتمامه ليس بوصف الوقائع الثقافية وحسب بل أيضاً فهمها من خلال إعادة وصلها بالمجموع الذي ترتبط به. فالعُرف الخاص لا يمكن تفسيره إلا برده إلى السياق الثقافي الذي هو سياقه. وكان يسعى إلى فهم الكيفية التي تشكّلت فيها النقيضة الأولية التي تمثلها كل ثقافة والكامنة وراء تجانسها.

2- ادوارد تايلور والمفهوم العالمي للثقافة:

ادوارد تايلور Edward Burnett Tylor (1832- 1917)، انثروبولوجي بريطاني أول من عرف الثقافة تعريفاً أناسياً، ويعدّ مؤسس الأنثروبولوجيا البريطانية. يرى أن الثقافة أو الحضارة بمعناها الأناسي الأوسع، هي ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة والمعتقدات والفن والأخلاق والقانون. وهذا التعريف وصفي وموضوعي وليس تعريفاً معيارياً، حيث يرى تايلور أن الثقافة تعبير عن شمولية الحياة الاجتماعية للإنسان، وتتميز ببعدها الجماعي، فهي مكتسبة، وبالتالي فهي لا تنشأ عن الوراثة البيولوجية. وكان تايلور يؤمن بقدرة الإنسان على التقدم، وكان يشترك في هذا مع الفرضيات التطوريّة التي كانت سائدة في عصره، ويرى أن العقل البشري يعمل في الشروط المتشابهة بشكل واحد في أي مكان، وبما أنه من ورثة عصر الأنوار فقد انضم أيضاً إلى المفهوم العالمي للثقافة الذي نادى به فلاسفة القرن الثامن عشر.

والمشكلة التي كان تايلور يحاول حلها عبر تفسير واحد هي المصالحة بين تطور الثقافة وبين عالميتها في كتابه: ((الثقافة البدائية)) عام 1871 وهو كتاب يؤسس للأناسة كعلم مستقل، ويتساءل عن أصول الثقافة وعن آليات تطورها. وكان أول أناسي يتطرق فعلاً إلى الوقائع الثقافية ضمن هدف عام ومنتظم. وأول من اهتم بدراسة الثقافة في كل أنماط المجتمعات في مختلف أوجهها المادية والرمزية وحتى الجسدية.

ووضع تايلور أثناء إقامته في المكسيك منهج لدراسة تطور الثقافة من خلال النظر في الآثار الثقافية الباقية في المكسيك، ومن خلال تعميم هذا المنهج المبدئي وصل إلى خلاصة مفادها أن ثقافة الشعوب البدائية المعاصرة هي بقايا المراحل الأولى للتطور الثقافي، وهي مراحل مرت بها ثقافة الشعوب المتحضرة حتماً. وقد كان منهج النظر في الآثار الباقية يستدعي منطقياً، اعتماد المنهج المقارن الذي أدخله تايلور في علم الأناسة. ويعتبر أن دراسة الثقافات الفريدة singulières ما كان لها أن تتم بدون مقارنتها مع بعضها، لأنها كانت ترتبط فيما بينها داخل حركة التقدم الثقافي نفسها. ومن خلال المنهج المقارن، حدد لنفسه هدف إقامة على الأقل سلم وإن كان غير دقيق لمراحل تطور الثقافة، ومن هنا أراد البرهنة على الاستمرارية بين الثقافة البدائية وبين الثقافة الأكثر تقدماً، ويرى أن البشر كلهم كانوا كائنات ثقافية تماماً.

3- إميل دوركايم والمقاربة الواحديّة للوقائع الثقافية:

إميل دوركايم Emile Durkheim (1858- 1917) عالم اجتماع يهودي فرنسي، كان أستاذ بالسربون وتأثر اتجاهه في علم الاجتماع بفلسفة كونت الوضعية، من أشهر مؤلفاته: ((قواعد المنهج السوسيولوجي)) 1895. ويعتبر رائد من رواد مدرسة علم الاجتماع الصرف (يتزعمها وأتباعه مثل: مارسيل موس، و ليفي برويل، أرست دعائم الوضعية الصحيحة، واعترفت باستقلال علم الاجتماع والظواهر الاجتماعية).

وقد تأخر المفهوم العلمي للثقافة لدى مؤسسي الأناسة الفرنسية كونهم يرون أن الثقافة واحدة هي ثقافة فرنسا وحضارتها، ولم يؤمنوا بعد بأن الثقافات متعددة، كما أن علم الاجتماع الفرنسي احتل مساحة البحث كلها، وكانت المسألة الاجتماعية تتضمن المسألة الثقافية، وثانيها أن علماء الاجتماع أنفسهم مشبعين بالعالمية المجردة لعصر الأنوار، مما منعهم من التعددية الثقافية في المجتمعات دون العودة إلى الحضارة، فكلمة حضارة تتصدى لكلمة ثقافة. وفي القرن التاسع عشر ظهر مفهوم علم الثقافة بشكل تدريجي، بعد أن واجهت فرنسا تنامي الهجرة الأجنبية السريع، فوضعها أما تعددية ثقافية فاعتمدت سياسة ثقافية إدماجية لهؤلاء طبقاً للنموذج المركزي.

وقد استخدم دوركايم كلمة (حضارة) بدل (ثقافة) متأثراً بما كان عليه الفرنسين في تلك الفترة، وبالتالي يؤيد فكرة تعدد الحضارات دون التقليل من أهمية وحدة الإنسان، ولا يرى اختلافاً بين البدائيين والمتحضرين من حيث طبيعتهم. كما يرى أن الحضارات منظومات مركبة ومتضامنة، وهو يتفق مع بعض أوجه النظرية التطورية، لكن يرفض أحادية الاتجاه، فيرى أن لها اتجاهات متعددة متنوعة.

ويرى دوركايم أن الثقافة نسبية، ولا شيء يثبت أن حضارة الغد ستكون امتداداً لحضارة اليوم المتطورة بل ربما سيكون صانعوها تلك الشعوب التي نعدها اليوم أدنى منّا كالصين على سبيل المثال. وقد يسيرونها في اتجاه جديد غير متوقع. فالمعيارية نسبية لكل مجتمع ولمستوى تطوره، وبالتالي فقد كان مفهومه للمعيارية فهماً وصفياً بحتاً قائماً على نوع من "الوسطي" الخاص بكل مجتمع من المجتمعات. وكان تفكيره حول الثقافة لا يشكل مجموعاً موحداً، ويرى أن الحضارات هي "منظومات مركبة ومتضامنة".

4- برنسيلو مالينوفسكي والتحليل الوظيفي للثقافة:

برنسيلو مالينوفسكي Bronislaw Malinowsk (1884- 1942) عالم انثروبولوجي نمساوي المولد، بولندي النشأة، بريطاني الجنسية، من أنصار الاتجاه الوظيفي، قام بعدة دراسات انثروبولوجية عن حياة الشعوب البدائية، واشتهر بدراسته الميدانية لسكان جزر تروبرياند Trobriand. وقد وقف ضد أية محاولة لتدوين تاريخ الثقافة الشفوية، وطالب بالاكتفاء بملاحظة الثقافات مباشرة في حالتها الراهنة دون السعي إلى تتبع أصولها، الأمر الذي يمثل مسعى مؤقتاً لأنه لا يستند إلى البرهان العلمي. ولقد انتقد مالينوفسكي تشظية الواقع الثقافي الذي تؤدي إليه بعض أبحاث التيار الانتشاري المتميز بمقاربة متحفية للوقائع الثقافية المردودة إلى سمات نجمعها ونصفها لذاتها دون أن نكون دائماً قادرين على فهم مكانتها في المنظومة الشاملة. وليس المهم أن تكون هذه السمة أو تلك موجودة هنا أو هناك بل المهم هو قيامها بوظيفة محددة في كلِّ ثقافي معين. ويستبعد دراسة تلك السمات منفصلة عن بعضها لأن كل ثقافة تشكل منظومة ترتبط عناصرها مع بعضها بعض: "(في كل ثقافة) يقوم كل من العرف والشيء والفكرة والمعتقد بوظيفة حيوية معينة، وتضطلع بمهمة معينة وتمثل جزءاً لا يمكن استبداله في الكل العضوي".

ويجب علينا تحليل الثقافة من منظور تزامني انطلاقاً من تحليل معطياتها المعاصرة. وفي مقابل الانتشارية التي تهتم بالماضي والتطورية التي تهتم بالمستقبل، اقترح مالينوفسكي الوظيفية التي تركز على الحاضر، وهو الفسحة الزمنية الوحيدة التي يمكن للانثروبولوجي من خلالها دراسة المجتمعات البشرية بشكل موضوعي. وبما أن كل ثقافة تشكل كلاً متجانساً، وأن كل عناصر منظومة ثقافية تنسجم مع بعضها بعض فإن هذا يجعل المنظومة متوازنة ووظيفية، وهو ما يفسر كون الثقافة

تسعى للاحتفاظ بانسجامها مع نفسها. ومالينوفسكي يقلل من أهمية اتجاهات التغير الداخلي الخاص بكل ثقافة، ويعتبر أن التغير الثقافي ينشأ أساساً عن الخارج بفضل الاحتكاك الثقافي.

ولتفسير الطابع الوظيفي للثقافات المختلفة يضع مالينوفسكي نظرية ستثير الكثير من الجدل، وهي النظرية المسماة بنظرية ((الحاجات)) أساساً لنظرية علمية للثقافة. (عنوان أحد كتبه المنشورة عام 1944). ويرى أن من شأن العناصر المكونة لثقافة ما، تلبية الحاجات الأساسية للإنسان، ويقترض نموذجه من علوم الطبيعة، ويذكر بأن البشر يشكلون نوعاً حيوانياً. لأن الإنسان يعيش عدداً من الحاجات الفيزيولوجية (الغذاء، التناسل، الحماية، الخ...) التي تفرض مقتضيات أساسية. والثقافة هي تماماً الاستجابة الوظيفية لتلك المقتضيات الطبيعية. وهي تستجيب لها من خلال ((المؤسسات)) وهو المفهوم الذي يتبناه مالينوفسكي والذي يشير إلى الحلول الجماعية (المنظمة) للحاجات الفردية.

5- روث بنيديكت والأنماط الثقافية:

روث بنيديكت Ruth Benedict (1887- 1948)، عالمة انثربولوجية أمريكية، كانت تلميذة بواس ثم مساعدة له، كرست جزءاً كبيراً من أعمالها لتحديد أنماط ثقافية تتسم بتوجهاتها العامة، واختيار تلك الأنماط للانتقاءات ذات الدلالة المسبقة من بين الخيارات الممكنة. ولقد وضعت بينديكت فرضية وجود ((قوس ثقافي)) يتضمن كل الإمكانيات الثقافية في المجالات كلها على اعتبار أن كل ثقافة غير قادرة على تحقيق سوى جزء خاص من هذا القوس الثقافي، وبالتالي تظهر الثقافات المختلفة محددة بنمط أو بأسلوب معيّن. وهذه الأنماط من الثقافات الممكنة لا توجد بعدد غير محدود بسبب حدود القوس الثقافي وبالتالي يمكن تصنيفها بعد أن يتم تحديدها. وإذا كانت بنيديكت مقتنعة بنوعية كل ثقافة فإنها تؤكد على أن تنوع الثقافات يمكن رده إلى عدد معين من الأنماط المحددة. واشتهرت بنيديكت باستخدامها المنهجي لمفهوم النمط الثقافي (الذي سيكون عنوان أشهر كتبها الصادر عام 1934) مع أنها لم تكن مؤلفته بالمعنى الحقيقي للكلمة، لأن فكرته كانت موجودة سابقاً عند كل من بواس وسابير. وهي ترى أن الثقافة تتميز بنموذج خاص بها أي بشكل معين وأسلوب ونموذج خاصين. وهذا المصطلح الذي لا مكان له في اللغة الفرنسية، يقتضي فكرة وجود كل متجانس ومنسجم.

وبالتالي فإن كل ثقافة هي متجانسة لأنها تنسجم مع الأهداف التي تسعى إليها، وهي أهداف مرتبطة بخياراتها من مجموعة الخيارات الثقافية الممكنة. ولا تسعى إلى هذه الأهداف بعلم الأفراد بل من خلالهم بفضل المؤسسات (لاسيما التربوية) التي ستشكّل كل التصرفات المتفقة مع القيم المهيمنة الخاصة بها. وبالتالي فإن ما يحدد ثقافة معينة ليس حضور أو غياب سمة أو عقدة أو سمات ثقافية بحد ذاتها، بل في توجهها الشامل في هذا الاتجاه أو ذاك، إنه نمط فكرها وفعلها المنسجم. فالثقافة ليست مجرد مراكمة سمات ثقافية، إنما هي شكل متجانس لتراكبها كلها مع بعضها بعض. وكل ثقافة تقدم للأفراد مخططاً غير واع لكل نشاطات الحياة.

وقد أوضحت بنيديكت منهجها من خلال دراسة مقارنة لنموذجين ثقافيين متناقضين هما نموذج هنود بويبلو في المكسيك الجديدة لاسيما شعب الزوني (وهو شعب محافظ ومسالم ومتضامن مع بعضه بشكل عميق، كما يحترم الآخرين وهو معتدل في التعبير عن مشاعره)، ونموذج جيرانهم هنود السهوب ومنهم شعب الكواكيوتل kwkiutl (وهو شعب طموح، فردي وعدواني بل وعنيف ويميل إلى التميز بالعاطفة الجياشة): فوصفت الأول بأنه نموذج ((أبولوني)) والثاني نموذج ((ديونيسي)) وبينت أن ثقافات أخرى ترتبط بهذين النموذجين وبينهما أنماط وسيطة.

6- رالف لينتون وأبراهام كاردينر والشخصية الأساسية:

يرى الأنثروبولوجيون المنتمون إلى مدرسة الثقافة والشخصية أنه لا يمكن تحديد الثقافة إلا من خلال البشر الذين يعيشونها. فالفرد والثقافة يشكلان واقعين متمايزين لكن لا يمكن فصلهما عن بعضهما البعض ويؤثر أحدهما على الآخر كما لا يمكن فهم أحدهما إلا في علاقته بالآخر، لكن الأنثروبولوجيين لا يتوقفون إلا عند ما هو مشترك في نفس الفرد بين أعضاء الجماعة نفسها.

وفي الواقع يتعلق المظهر الفردي للشخصية بفرع معرفي آخر هو علم النفس، هذا المظهر المشترك، في الشخصية يسميه رالف لينتون Ralph Linton (1893- 1953) "الشخصية الأساسية"، وهو عالم أمريكي متخصص في علم الإنسان طوّر مفهوم المرتبة ومفهوم الوظيفة، وهو يرى أنها - الشخصية الأساسية- تتحدد مباشرة بالثقافة التي ينتمي إليها الفرد. ولينتون لا يجهل تنوع النفسيّات الفردية. ويظن أن مجموعة الاختلافات النفسية يمكن العثور عليها في أية ثقافة، وهو أمر يصح على ثقافة معينة وما هو صحيح في هذه الثقافة أو تلك هو هيمنة هذا النمط أو ذاك من أنماط الشخصية.

وفي تطويره لأبحاث بنيديكت وميد رأى لينتون من خلال استطلاعاته المبدئية في جزر الماركيز ومدغشقر أن كل ثقافة تفضل من كل الأنماط الممكنة نمط الشخصية التي يصبح عندها عادياً (متفقاً مع المعيار الثقافي وبالتالي معترف به بأنه نمط عادي. هذا النمط العادي هو الشخصية الأساسية، بمعنى آخر هو الأساس الثقافي للشخصية (وفقاً للعبارة التي ستتحول في عام 1945 إلى عنوان لأحد كتبه). وكل فرد يكتسب هذه الشخصية من خلال منظومة التربية الخاصة بمجتمعه.

وجه المسألة هذا - اكتساب الشخصية الأساسية من خلال التربية- شكل معظم الأبحاث النوعية التي أجراها أبراهام كاردينر Abraham Kardiner (1891-1981)، وهو محلل نفسي مؤهل وتعاون بشكل وثيق مع لينتون. وقد درس كيفية تكون الشخصية الأساسية عند الفرد عبر ما يسميه بـ: "المؤسسات الأولية" الخاصة بكل مجتمع (وأولها العائلة والمنظومة التربوية) وكيفية تأثير هذه الشخصية على ثقافة الجماعة عبر إنتاجها- عن طريق نوع من آلية الإسقاط) "مؤسسات ثانوية" (منظومات قيم ومعتقدات على وجه الخصوص) تعوّض الإحباطات التي تسببها المؤسسات الأولية التي تؤدي إلى تطور الثقافة بشكل ملموس.

ولقد حاول لينتون تجاوز المفهوم الجامد للشخصية الأساسية، وكان يأخذ على بينديكت الاختزال الذي كانت تقوم به من خلال ربطها الثقافة بنمط ثقافي واحد يرتبط بنمط سلوكي مهيمن. وكان يؤمن بأن الثقافة الواحدة من شأنها أن تتضمن في الوقت نفسه عدة أنماط عادية من الثقافة، لأن عدة منظومات قيمية تتعايش في عدد من الثقافات. ثم ينبغي النظر بعين الاعتبار، كما يقول لينتون، إلى تنوع القوانين في كنف المجتمع الواحد. والفرد غير قادر على أن يجمع كل الثقافة التي ينتمي إليها ولا يملك معرفة تامة بثقافته. كما أنه لا يعرف من ثقافته إلا ما هو ضروري له لكي يتوافق مع قوانينها (الجنس، العمر، الوضع الاجتماعي... الخ) ليقوم بأدوار اجتماعية تنتج عنها. ووجود قوانين مختلفة يقود في نهاية الأمر إلى هذه التنوعات الدالة، إلى حد ما، على الشخصية الأساسية وهي "الشخصيات القانونية".

ونلاحظ أن لدى كل من لينتون وكاردينر مفهوماً مرناً حول الانتقال الثقافي الذي تحل التنوعات الفردية محله بالإضافة إلى كونه لا يهمل مسألة التغير الثقافي، وبالتالي فإن مقاربتهما للثقافة وللشخصية هي مقاربة ديناميكية أكثر منها سكونية.